بطل القادسية

سعد بن أبى وقاص

obeikandl.com

obeikandl.com

سعد بن أبى وقاص

بطل القادسية

عاشت شبه الجزيرة العربية ردحًا طويلاً من الزمان فى ظلام الجهل والفقر لا يعبأ بها أحد ، فهى ليست مطمعًا لأحد ؛ لجدب الصحراء التى تتناثر على رمالها مجموعة من القبائل لا يربطها رابط ، بل هى دائمة الصراع والقتال فيما بينها.

ولم يكن فيها مكان يستهوى أحدًا سوى مكة؛ لأن فيها بيت الله الحرام.. هذا البيت الذى كان يقدسه العرب، وإن كان هو الآخر قد دنَّسَتْه الأصنام التى امتلأت بها ساحته.

إن هذا البيت الذى رفع قواعده خليل الرحمن إبراهيم - عليه السلام - وابنه إسماعيل ، كان أول بيت وضع للناس. غير أنه بتوالى السنين نسى الناس رسالة التوحيد التى نادى بها الخليل عليه السلام ، وبدءوا يضعون الأصنام فى بيت الله الحرام؛ لتقربهم إلى الله زلفى.

كانت مكة إذن هى محط الأنظار؛ لأن بها الكعبة ، ولأنها فى

موقع وسط بين اليمن والشام ، فكانت القوافل، القادمة من اليمن والذاهبة إلى الشام تمر بها، ومن هنا عرف أهل مكة رحلة الشتاء والصيف للتجارة فيما بين اليمن والشام وغير ذلك. كان كل شيء عاديا.

وعلى الحدود المتاخمة كانت هناك إمبراطورية الروم.. تفرض سيطرتها على الشام ، ثم تمتد السيطرة لتشمل مصر ، ثم الشمال الإفريقى حتى المحيط الأطلنطى. ولكن هذه الإمبراطورية لم تدخل شبه الجزيرة؛ فليس فيها من الثروات أو الفوائد ما يجعلها تفرض وصايتها عليها.

وهناك أيضًا الإمبراطورية الفارسية التى فرضت وصايتها علي العراق وعلى القبائل العربية فى الشام ، ولكنها أيضًا توقفت عن الدخول إلى شبه جزيرة العرب؛ لخوائها وقلة أهميتها.

كل شيء فى شبه الجزيرة كان يسير سيرًا نمطيا عاديا ، وسكانها ليس لهم خطر على أحد إلا على أنفسهم ، إلى أن بزغ نور الرسالة المحمدية ، فإذا بتغيرات جذرية هائلة بدأت تبرز فى محيط شبه الجزيرة.

وكان واضحًا رغم عنف مقاومة مكة للدين الجديد أن هذا الدين سيظهر أمره ، وأنه يرتفع بإنسانية معتنقيه إلى ذروة عالية

من الشموخ وعزة النفس.

وقد جذب هذا الدين إليه فى بداية الأمر أسماء لها مكانتها فى مجتمع مكة ، كأبى بكر الصديق ، وعبدالرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله.

وقد عرف سعد بن أبى وقاص طريقه إلى الإسلام عن طريق أبى بكر الصديق ، فقد كان إسلامه مبكرًا ، وكان لا يزال فى بداية الشباب عندما دخل الإيمان قلبه ، ولم يجد بعد أن ذاق حلاوة الإيمان أروع ولا أعظم من هذه العقيدة.

ويقول الرواة إنه كان يحب والدته حبا جما ، وكانت هى الأخرى تحبه حبا كبيرا ، وحزنت عندما علمت بإسلامه ، وحاولت أن تثنيه عن عزمه فلم تستطع .

فليس من المعقول أن يرجع من عرف لذة اليقين إلى جحيم الجاهلية. ومن المستحيل على من ذاق وعرف نور الإيمان أن يعود لعبادة حجارة صماء عمياء لا تملك نفعًا ولا ضرا ، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

فإذا أمه تهتدى إلى حيلة خُيِّل إليها أنها سوف تعيد ابنها إلى عقيدة الآباء والأجداد.. قررت أن تصوم حتى الموت ، وخيَّرت ابنها بين أن يعود إلى دين الآباء والأجداد ، وأن تموت جوعًا،

فيصبح ابنها هدفًا لأن يعايره الآخرون بأنه قاتلُ أمه.

فماذا فعل سعد أمام هذا الاختيار الصعب؟

قال لها بكل الثقة والإيمان:

« تعلمين والله يا أماه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسًا نفسًا ما تركت دينى هذا لشيء ، فكلى إن شئت أو لا تأكلى ».

ويصف الرواة سعدًا بأنه كان طويل القامة ، أسمر البشرة ، مهيباً جليلاً ، له صوت مجلجل فى ساحات القتال.

وكان سعد عندما يتهيأ للصلاة يقوم للوضوء ، فكان وجهه يمتقع، وترتعد فرائصه؛ لأنه سيقف أمام الله ، وبكل خشوع وتقوى يؤدى صلاته الخاشعة أمام ملك الملوك.

وكان أول من رمى بسهم فى الإسلام ، وهو بطل القادسية التى قهر فيها الفرس وحطم كبرياءهم. وبعدها دخل المدائن عاصمتهم. وبعد أن تحقق له هذا النصر الهائل ، ودخل قصر كسرى صلى لله شاكرًا وردد قوله تعالى:

﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [الدخان: ٢٥ - ٢٨].

لقد شاهد سعد بن أبى وقاص أيام الرسول الأولى مع بدايات الدعوة ، شاهد عن قرب شخصية النبى ﷺ الآسرة، وما فيها من جاذبية وقوة شخصية. كما استمع إلى بلاغة الرسول ﷺ وقدرته الفائقة على الدعوة لدين الله ، فبهرته هذه الشخصية فى الحرب والسلام ، وفى تبليغ الدعوة ، وفى معاملته للناس ، وفى سلوكه وورعه وزهده وتقشفه.

وشاهد النبى ﷺ فى معركة بدر ، شاهد ثباته العظيم، حيث انتصر المسلمون وهم قلة على مكة بكبريائها وصلفها.

وأبلى سعد فى هذه المعركة بلاءً حسنًا. كما كان له موقفه البطولى فى موقعة بدر ، حيث كان ماهرًا فى الرماية ، حتى إنهم قالوا عنه إنه أول من رمى بسهم فى الإسلام ، بل إن النبى ﷺ شجعه وأخذ يشد من أزره، ليقاتل أعداء الله بأن قال له كلمة أصبحت وسامًا على صدر سعد طوال حياته . فقد قال له الرسول الكريم:

« ارمِ يا سعد . . فداك أبى وأمى».

وقد دعا النبى ﷺ بأن يكون مستجاب الدعاء ، فقد كانت دعواته مستجابة.

ويروى الرواة هذه القصة التى توضح هذا المعنى:

رأى سعد رجلاً يسب عليا وطلحة والزبير، فنهاه فلم ينتهِ.

فقال له : إذن أدعو عليك.

فقال الرجل : أراك تهددنى كأنك نبى.

فانصرف سعد وتوضأ وصلى ركعتين، ثم رفع يديه وقال:

«اللهم إن كنت تعلم أن هذا الرجل قد سب أقوامًا سبقت لهم منك الحسنى ، وأنه قد أسخطك سبه إياهم؛ فاجعله عبرة وآية».

فلم يمض غير وقت قصير ، حتى خرجت من إحدى الدور ناقة نادَّة لا يردها شىء حتى دخلت فى زحام الناس، ثم اقتحمت الرجل فأخذته بين قوائمها ، وما زالت تتخبطه حتى مات.

وتمضى أيام رسول الله .

وجاءت أيام الصديق، حيث بدأ حكمه بالقضاء على المرتدين، ومانعى الزكاة ، وسيَّرَ جيش أسامة الذى كان قد أعده النبى لمجابهة الروم. وحقق خليفة رسول الله ﷺ الكثير عندما أعاد لكلمة التوحيد مكانتها ، ووحد الأمة على كلمة سواء ، وأعاد للإسلام قوته ومكانته وهيبته، وبسط نفوذه إلى خارج شبه الجزيرة.

ثم جاءت أيام الفاروق عمر بن الخطاب، لتأخذ الفتوحات الإسلامية دفعة قوية عندما انبرى لأقوى إمبراطورتين عرفهما التاريخ:

الإمبراطورية الرومانية ، والإمبراطورية الفارسية.

وكانت جيوش المسلمين قد حققت انتصارات على الفرس على يد المثنى بن حارثة، كما أنها أخذت تضرب الإمبراطورية الرومانية ضربات قاصمة على يد القادة الكبار ، والتى تألَّقَ فيها سيف الله خالد بن الوليد ، فى انتصاراته المذهلة على الروم.

وجاءت الأنباء إلى أمير المؤمنين بأن الفرس تعد للقضاء على المسلمين فى العراق ، وأنهم جهزوا لذلك جيشًا هائلاً ، مزودًا بأحدث الأسلحة وأفتكها ، كما زود هذا الجيش بالفيلة المدربة على القتال ، حتى إن عمر بن الخطاب أراد أن يذهب بنفسه ليقود جيش المسلمين ضد الفرس ، إلا أن الصحابة اعترضوا على ذلك فقرر أن يقود الجيش سعد بن أبى وقاص ، ليخوض معركة فاصلة مع الفرس ، بعد أن أثبت المثنى بن حارثة الشيبانى أنه من الممكن الانتصار على الفرس ، بل إن المثنى حقق بعض الانتصارات غير أنه استشهد بعد أن جاهد جهادًا عظيمًا فى الإسلام.

ويمضى سعد إلى العراق ، وترن فى أعماقه كلمات أمير

المؤمنين عمر بن الخطاب ، وهو يغادر المدينة فى طريقه لمجابهة هذه القوة العظمى المتمثلة فى الإمبراطورية الفارسية :

« يا سعد ، لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول وصاحبه ، فإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا بطاعته ، والناس شريفهم ووضيعهم فى ذات الله سواء ، الله ربهم وهم عباده ، يتفاضلون بالعاقبة ، ويدركون ما عند الله بالطاعة، فانتظر الأمر الذى رأيت رسول الله ﷺ منذ بعث إلى أن فارقنا عليه فالزمه ، فإنه الأمر».

بطل القادسية:

ومضى سعد إلى ميدان القتال نحو القادسية ، تلك المعركة التى غيرت مسار التاريخ الإنسانى كله ، إذ على أعقابها تغيرت خريطة الدنيا ، وداست سنابك خيول المسلمين إيوان كسرى ، وتحطمت الإمبراطورية التى طالما سامت الشعوب ذلا وهوانًا.

لقد كان جيش الفرس ضخمًا عددًا وعدة بقيادة رستم القائد الشهير الذى عسكر شرق الفرات ، وكان أمله ألا تحدث معركة فاصلة بينه وبين المسلمين ، وتمنى لو أخذت الأحداث مسارًا آخر لا يؤدى إلى معركة فاصلة بين المسلمين والفرس.

ويقول الرواة إن عمر بن الخطاب أرسل إلى سعد أن يبعث

بوفد إلى كسرى يعرض عليه الإسلام أو الجزية وإلا فهى الحرب ، وإن سعدًا أرسل وفدًا برئاسة النعمان بن مقرن ، وفى هذا اللقاء عيرهم «يزدجرد» بضعفهم وفقرهم واقترح عليهم أن يعين عليهم ملكًا يرفق بهم.

ورد عليه المغيرة بن زرارة الأسدى ، وأوضح له كيف أن الإسلام غيَّر من صورة العرب ، وحدثه عن النبى الخاتم ورسالته، وكيف انتصر ودخل العرب فى دين الله أفواجًا ، ثم ختم حديثه مع كسرى بقوله:

«فاختر إن شئت الجزية عن يد وأنت صاغر ، وإن شئت السيف، أو تُسلِم فتنجى ».

وقال له كسرى :

«أتستقبلنى بمثل هذا ؟! لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم ولا شىء عندى لكم».

وأمر كسرى أن يُهال على الوفد التراب ، وهددهم بأنه سيدفن المسلمين فى القادسية.

فشلت المفاوضات إذن ، وفرضت المعركة على المسلمين ، ولكن سعدًا أراد أن يبعث الرسل إلى رستم الفارسى؛ ليعرف عن

قرب بنية الفرس؛ وفى نفس الوقت كان يريد إضعاف الروح المعنوية للفرس؛ لأن الرسل الذين كان يرسلهم سعد كانوا يظهرون عدم المبالاة بالفرس وقادتهم.

وكانت هذه المفاوضات عديمة الجدوى ، فالفرس يرون فى العرب قومًا ضعفاء ألجأهم الفقر إلى محاربتهم. بينما كان العرب يرون أن نور الإسلام لا بد أن ينتشر ، وأن النصر حليفهم. ورغم أن سعدًا كان مريضًا ، فإنه أمر جيشه بالذهاب للقتال ، وطلب منهم قراءة سورة الأنفال ، وفيها الآيات التى تحض على الجهاد ، وارتفعت الروح المعنوية عندهم إلى القمة.

وقامت المعركة التى تحقق فيها نصر الله ، وقُتل رستم ، وقد قدر بعض المؤرخين خسائر الفرس بأكثر من ثلاثين ألف قتيل فى هذه المعركة.

وكان عمر بن الخطاب فى المدينة ينتظر الأنباء.

ويقول الرواة إنه كان يخرج خارج المدينة ؛ لعله يجد أحد القادمين من العراق ليعرف أخبار المعركة ، وإنه رأى أحدهم قادمًا على راحلة، فأخذ عمر يسأل الرجل ، والرجل يجيب عن أسئلة أمير المؤمنين وهو لا يعرفه ، فقد كان يجيب عن أسئلته دون أن يتوقف، وعمر العظيم يسير بجانبه مصغٍ إلى كلامه ، إلى أن

دخل المدينة ، فوجد الناس تحيى أمير المؤمنين ، فعرفه ، فاعتذر له وأخبره بانتصار المسلمين الساحق على الفرس.

بداية انتصار الإسلام:

وكانت معركة القادسية بداية للانتصارات المذهلة للمسلمين على الفرس؛ فقد تحطمت قوتهم ، وتحطمت معنوياتهم، وأصبح الباب مفتوحًا أمام المسلمين لدخول المدائن عاصمة الفرس بعد ذلك ، وعندما دخل سعد إيوان كسرى ، ورأى ما فيه من كنوز وأموال وأثاث ، صلى لله شاكرًا على إنعامه وهو يردد قوله تعالى:

﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ [الدخان: ٢٥ - ٢٨].

وبعد تحقيق هذا النصر الهائل غنم المسلمون غنائم كثيرة عظيمة، وبعدها تولى سعد إمارة العراق ، ثم عاد إلى المدينة ، وآثر أن يعيش بعيدًا عن الإمارة ، وخاصة بعد أن اتهمه أهل الكوفة أنه لا يحسن الصلاة.

لقد حقق المسلمون فى عهد عمر بن الخطاب انتصارات لم تكن تخطر على بال أحد، حيث انتصروا على الفرس فى

العراق، ودخلوا المدائن عاصمة كسرى نفسها ، كما نجح المسلمون فى إقصاء الرومان عن الشام وفلسطين ومصر ، وأصبحت الإمبراطورية الإسلامية من أقوى الإمبراطوريات التى عرفها التاريخ ، ولم تعد هناك قوة على وجه الأرض يمكنها الصمود أمام زحفها الجارف.

وتعرَّض أمير المؤمنين لمؤامرة خسيسة عندما طعنه أبو لؤلؤة المجوسى وهو يصلى ، وأوصى عمر أن يختار المسلمون واحدًا من ستة رشحهم للخلافة ، وكان من هؤلاء الستة سعد بن أبى وقاص ، بل إن عمر بن الخطاب أوصى إذا لم يتولَّ سعد الخلافة فليستعن به من يلى الحكم، وهذا يدل على مدى ثقة عمر بن الخطاب بسعد بن أبى وقاص.

وتؤول الخلافة إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ويبدأ عهده وقد استبشر الناس به ، فهو «ذو النورين» ، وهو الذى اشترى بئر رومة فى عهد رسول الله ووهبه للمسلمين ، وهو الذى أسهم بماله فى الجهاد فى سبيل الله ، وخاصة فى غزوة تبوك ، كما أنه ليس فيه شدة عمر بن الخطاب ، وزاد حب الناس له وهم يرون الزحف الإسلامى يواصل مده الساحق فى كل اتجاه، شرقًا وغربًا . كما أن الخليفة سمح بتكوين أسطول بحرى

لأول مرة فى تاريخ العرب ليواجهه الروم فى البحر أيضًا .

وكان هذا الأسطول الذى تكون بتشجيع من الخليفة لكل من معاوية بن أبى سفيان والى الشام ، وعبدالله بن أبى السرح والى مصر، النواة لهذا الأسطول الذى استطاع أن يقهر البيزنطيين فى معركة ذات الصوارى.

كما سمح الخليفة لمعاوية بالاستيلاء على قبرص ، فالصورة إذن كانت ناصعة ، انتصارات فى البحر والبر، وطموحات إسلامية لا حد لها.

إلا أنه سرعان ما بدأت الفتنة تطل برأسها ، وإذا بالبعض يتخذ من تعيين الخليفة لبعض أقاربه من الأمويين فى السلطة وإطلاق يدهم فى الحكم وسيلة للثورة عليه ، وبدأت أحداث الفتنة الكبرى التى انتهت بقتل الإمام مظلومًا.

لقد دافع سعد فى أول الأمر عن الخليفة أثناء الحصار ، ثم وجد نفسه ، أو هداه تفكيره أن يبتعد عن هذه الفتنة التى أطلت برأسها لتسدل ستارًا مظلمًا على الحياة فى المدينة ، ويمتد أثرها إلى مختلف بقاع العالم الإسلامى.

وكانت وجهة نظر سعد بن أبى وقاص فى بُعده عن الفتنة التى استعر أوارها أن السيف لا يفرق بين المؤمن وغير المؤمن ،

أو على حد قوله:

« أريد من ألف سيف سيفًا واحدًا ، إذا ضربت به المؤمن لم يقطع شيئًا ، وإذا ضربت به الكافر قطع ».

لقد رفض سعد أن يدخل فى دائرة الصراع عندما احتدمت نيران الفتنة ، وابتعد تمامًا عن الصراع الذى دار بين أمير المؤمنين على بن أبى طالب ومعاوية ، بل إنه رد على معاوية عندما أخذ يعاتبه بأنه وقف موقفًا سلبيا من صراعه مع على بأن قال له:

« ما كنت لأقاتل عليا وقد قال رسول الله : أنت منى بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبى بعدى».

وتمضى الأيام ، ويشعر المجاهد العظيم يدنو الأجل ، وأنه سوف يلاقى خالقه ، فإذا بالسعادة ترتسم على وجهه ، فهو أحد العشرة الذين بشرهم رسول الله ﷺ بالجنة.

وإذا به يطلب ثوبًا قديمًا كان يحتفظ به؛ لأنه كان يجاهد به فى معركة بدر الكبرى ، وكانت وصيته أن يدفن فى الثوب البالى الذى شهد جهاده فى أعظم معارك الإسلام مع حبيبه رسول الله ﷺ ، تلك المعركة التى كانت نقطة تحول كبرى فى مسيرة الإسلام.

لقد خرجت الروح الطاهرة إلى بارئها ودفن فى أرض البقيع بعد أن ترك من الأمجاد ما سوف يظل التاريخ يردده إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، إنه قاهر الفرس ، ورافع راية التوحيد على بقاع كانت تقدس النار.

ويكفيه فخراً أن النبى كان يفاخر به . . وكان يقول له عندما يلقاه:

« هذا خالى ، فليرنى امرؤ خاله ».

****

obeikandl.com